المحاضرة - 04 - الرابعة﴾

الأدب وليد البيئة

عناصر الدرس

1- البيئة انواعها وأثرها
2- ميلاد النظرية الانعكاسية
3- النظرية الانعكاسية في النقد العربي
4- نقد النظرية الانعكاسية

محاضرات الدكتور مسعود بن ذراي

1- البيئة أنواعها وأثرها:

لا شك إن للبيئة الدور الأكبر في تشكيل شخصية الإنسان وسلوكه وتعامله مع باقي المخلوقات المحيطة به، فكل إنسان يؤثر ويتأثر في بيئته على حسب ما تحتويه هذه البيئة من عناصر و أدوات .وللبيئة أنواع هي: البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية وهي مجموعة من القوانين والأنظمة التي تحكم العلاقات الداخلية للأفراد والمؤسسات والهيئات السياسية والاجتماعية. والبيئة الصناعية: وهي البيئة التي صنعها الإنسان كالقرى والمزارع والمصانع..

والبيئة الطبيعية بدورها تنقسم إلى: بيئة صحراوية بدوية، وبيئة جبلية، وبيئة ساحلية بحرية، وبيئة ريفية، وبيئة مدنية متقدمة. وفي هذا المقام يُحكى أنّ الشاعر البدوي علي بن الجهم[1]، الذي عاش فترة طفولته وشبابه في الصحراء، قد ضاقت به الحال يوماً فجاء إلى الخليفة العباسي المتوكل لينشده الشعر أملا في عطاياه، فاستهل قصيدته في مدح المتوكل بقوله :

أنـــت كالكلـــب فـــي حفاظـــك للـــوُدّ ... وكـــالتيس فـــي قـــراع الخطـــوبِ
أنـــت كالـــدلو لا عـــدمناك دلـــواً ... مـــن كبـــار الـــدّلا كثيـــر الـــذّنوب[2]

فثار عليه الحاجب والوزير والخدم يضربونه ويريدون إسكاته فلا يكمل قصيدته، ولكن الخليفة المتوكل قد عرف أن قسوة الألفاظ تسيطر عليه بحكم البيئة التي عاشها وأن هذه التشبيهات هي من نتاج انطباعاته البيئية. ثم إن الخليفة المتوكل أمر بأن يتم إسكان علي بن الجهم في بيت وسط بستان في الرصافة على شاطئ دجلة عند جسر بغداد. وكانت تلك المنطقة خضراء يانعة فيها أسواق وخضرة ونساء وجمال، وقال لرجاله: أرجعوه إليّ بعد شهر ليعرض بضاعته، وفعلاً بعد شهر جيء بعلي بن الجهم هذا إلى جلسة المتوكل وحوله الأدباء والشعراء وقال له: أنشدنا، فقال علي بن الجهم قصيدة رائعة قال فيها وعنها الشعراء (لو لم تكن لديه إلا هي لكانت تكفيه أن يكون أشعر الناس)، والتي قال فيها:

عيـــون المهـــا بـــين الرصـــافة والجســـر ... جلـــبن الهـــوى مـــن حيـــث أدري ولا أدري
أعـــدن لـــي الشـــوق القـــديم ولـــم أكـــن ... ســـلوت ولكـــن زدن جمـــرا علـــى جمـــر
خليلـــي مـــا أحلـــى الهـــوى وأمـــره ... أعرفنـــي بـــالحلو منـــه وبـــالمرّ !
كفـــى بـــالهوى شـــغلاً وبالشـــيب زاجـــراً ... لـــو أن الهـــوى ممـــا ينهنـــه بـــالزجر
بمـــا بيننـــا مـــن حرمـــة هـــل علمتمـــا ... أرق مـــن الشـــكوى وأقســـى مـــن الهجـــر؟

---

[1]- عليّ بن الجَهْم: 000- 249 هـ = 000 – 863م. علي بن الجهم بن بدر، أَبُو الحسن، من بني سامة، من لؤيّ بن غالب: شاعر، رقيق الشعر، أديب، من أهل بغداد كان معاصرا لأبي تمام، وخص بالمتوكل العباسي. ثم غضب عليه المتوكل، فنفاه إلى خراسان، فأقام مدة. وانتقل إلى حلب، ثم خرج منها بجماعة يريد الغزو فاعترضه فرسان من بني كلب، فقاتلهم، وجرح ومات من جراحة. له " ديوان شعر - ط ".

[2]- الذنوب بفتح الذال معناها الكثير السيلان بسبب امتلائه.

و أفضح من عين المحب لسّره ... ولا سيما إن طلقت دمعة تجري
وإن أنست للأشياء لا أنسى قولها ... جارتها: ما أولع الحب بالحر
فقالت لها الأخرى : فما لصديقنا ... معنى وهل في قتله لك من عذر؟
صليه لعل الوصل يحييه واعلمي ... بأن أسير الحب في أعظم الأسر
فقالت أذود الناس عنه وقلما ... يطيب الهوى إلا لمنهتك الستر
وأيقنتا أن قد سمعت فقالتا ... من الطارق المصغي إلينا وما ندري
فقلت فتى إن شئتما كتم الهوى ... وإلا فخلاع الأعنة والغدر

2- ميلاد النظرية الانعكاسية: وترجع أول معالجة حقيقية للعلاقة بين الأدب والمجتمع إلى الفيلسوف الفرنسي "هيبوليت تين" H.taine وعلى غرار سابقيه أمثال "أوجست كونت" 1798 Auguste conte - 1856 مؤسس الفلسفة الوضعية وأول من صك مصطلح علم الاجتماع . حاول تين إخضاع الأدب والفن إلى أسس مادية مستقاة من المجتمع تعكس حقائق مؤكدة ومحددة، حيث يرى أن الأعمال الأدبية ينبغي أن تفهم على أنها نتيجة أو محصلة ثلاثة عوامل متمازجة العصر ، والجنس (العرق) ، والبيئة .

فإذا بدأنا **بالجنس** سنجد أن تين taine قد عرفه في ضوء السمات النظرية والوراثية والمزاج الانفعالي حيث أشار إلى أن هناك اختلافا واسع النطاق بين الأجناس البشرية بعضها البعض من حيث الظروف المعيشة والموطن الأصلي والأصل التاريخي.. حيث يكتسب الجنس الخصائص المميزة له من البيئة الطبيعية والعادات والتقاليد المتوارثة والأحداث التاريخية التي مر بها في أصله. فضلاً عن الدوافع والرغبات الدفينة التي تلعب دوراً هاماً في صياغة الفعل الإنساني وتطويره.

وبالنسبة **للعصر** وهو العامل الثاني الذي يحدد شكل ومضمون الأدب كما أشار تين فقد قصد به الأفكار والمفاهيم الإنسانية المسيطرة على روح العصر المنتج للعمل الأدبي وأخيرا أكد تين على دور **البيئة** كعامل أساسي في تحديد شكل ومضمون الأجناس الأدبية وتعني البيئة أشياء كثيرة كالمناخ والجغرافيا الطبيعية والنظم الاجتماعية التى تحتضنها هذه البيئة .

2- النظرية الانعكاسية في النقد العربي: وقد تناول نقاد الأدب العربي العلاقة بين الأدب والمجتمع بالبحث والتحليل فيؤكد "طه حسين " على أن كل أديب لا يستقي مادته وروحه من حياة الشعب فليس أديبا، ولا هو بكاتب للأدب وعلى ذلك فلابد من أن تعرف ماذا يقول الشعب وكيف يعيش الشعب وكيف يحكي حكاياته وأقاصيصه ولابد للأدباء من دراسة الأدب والحياة في البيئات المختلفة للناس.

ويرى أحمد أمين" في كتابه " النقد الأدبي " أن الأديب ليس حقيقة مفردة مستقلة منعزلة ، بل له صلاته التي تربطه بالماضي والحاضر ، وأفكار الشاعر أو الأديب هي لدرجة كبيرة وليدة البيئة ، وعلى ذلك فخير تعريف للأدب أنه التعبير عن الحياة ، أو بعضها ، بعبارة جميلة. وإلى شيء من هذا يذهب محمد حسين هيكل فيعرف الأدب بأنه فن جميل غايته تبليغ الناس رسالة ما في الحياة من حق وجمال بواسطة الكلام

3- نقـــد النظريـــة الانعكاســـية: ولقـــد وجهـــت إلـــى نظريـــة الانعكـــاس بعـــض الانتقـــادات والاعتراضـــات مـــن قبـــل النقـــاد والمشـــتغلين بـــالأدب حيـــث انتقـــد الـــبعض مســـمى " الانعكـــاس " رافضـــاً قصـــور دور المســـرح علـــى النقـــل الحرفـــى للواقـــع، وهـــدمها الـــبعض الآخـــر ليشـــيد محلهـــا نظريـــات تمجـــد الـــدور الترفيهـــى للمســـرح وتقصره على المتعة والتسلية .

فقـــد أكـــد " رايمونـــد ويليـــامز" Raymond Williams علـــى أن هنـــاك مفهومـــاً أخـــر معـــدل لمفهـــوم " الانعكـــاس " وهـــو التوفيـــق أو " التوليـــف " الـــذى يـــدل اســـمه علـــى عمليـــة فعالـــة ولـــيس علـــى تلـــك الآليـــة الســـكونية التـــى تـــوحى بهـــا كلمـــة انعكـــاس ، ويرتكـــز المفهـــوم الجديـــد علـــى عـــاملى الفاعليـــة واللامباشـــرة ، حيـــث يقـــدم تصـــوراً متميـــزاً لموضـــوع العلاقـــة بـــين الأدب والمجتمـــع تجـــاوز مســـألة انعكـــاس الواقـــع مباشـــرة فـــى الأدب مؤكـــدا علـــى أن الواقـــع يمـــر بعمليـــة "توفيـــق" تغيـــر محتـــواه الأصـــلى أو علـــى الأقـــل تغيـــر صـــورته مـــن خـــلال إســـباغها لنســـق خـــاص أو شـــكل خـــاص علـــى هـــذا المحتـــوى الـــواقعى الخـــارجى ، إذ ينطـــوى التوفيـــق علـــى نـــوع مـــن التعبيـــر غيـــر المباشـــر الـــذى يتحـــور فـــى الواقـــع الاجتمـــاعى مـــن خـــلال أشـــكال متعـــددة مـــن الإســـقاط أو التقنيـــع وبـــذلك يمكـــن بعمليـــة تحليـــل مناقضـــة اســـتعادة صـــورة الواقـــع الاجتمـــاعى الأصـــلية بعـــد نـــزع الأقنعـــة أو تعريـــة الإســـقاطات. وبـــذلك فقـــد أفســـح المفهـــوم الجديـــد المجـــال أمـــام العقـــل الـــواعى بـــالواقع بوصـــفه المـــرآة التـــى تتلقـــى الصـــورة قبـــل أن تعكســـها ، والتـــى تتعامـــل بـــالقطع مـــع هـــذه الصـــورة بفاعليـــة يترتـــب عليهـــا تغيـــر الكثيـــر مـــن ملامحهـــا وتفاصـــيلها فـــى عمليـــة أقـــرب إلـــى إعـــادة الصـــياغة منهـــا إلـــى الانعكـــاس ، فهـــو يـــرى أن مهمـــة الأديـــب لا تقتصـــر علـــى النقـــل الحرفـــى للواقـــع بـــل تتعـــدى ذلـــك إلـــى صـــبغته برؤيـــة الفنـــان التـــى يحـــددها فكـــرة وخيالـــه ، بالإضـــافة إلـــى العبقريـــة الشخصـــية أو الموهبـــة الذاتيـــة التـــى تـــداركها "تـــين" وأضافها إلى ثالوثه (البيئة ـ الجنس ـ العصر)"

حـــين أشـــاد بعبقريـــة "شكســـبير" فـــى مقدمـــة كتابـــه عـــن الأدب الإنجليـــزى حيـــث أشـــار إلـــى أن هنـــاك أشخاصـــاً أدبـــاء كبـــارا يرتفعـــون بقامـــاتهم عـــن الوســـط الـــذى عاشـــوا فيـــه ، ويحققـــون بمـــواهبهم مســـتويات نوعيـــة مـــن الإبـــداع لا يمكـــن أن تفســـر فقـــط طبقـــاً لنظريتـــه الســـابقة ، بـــل لابـــد مـــن إدخـــال عامـــل آخـــر ، وهـــو عامـــل الموهبـــة الفرديـــة وعبقرية الأشخاص فى حساب الدارس للإبداع الأدبى.

محاضرات الدكتور مسعود بن ساري